هل حبل خَوْلَة بعد الهجر موصولُ أم أنت عنها بعيدُ الدار مشغولُ

ويمضى فيذكر جهاد المسلمين للفرس ، يقول :

يقارعون رءوسَ العُجْم ضاحيةً منهم فوارسُ لا عُزْلٌ ولا مِيلُ[1]

ويحدثنا عن هجرته مع قومه وأنهم إنما يبتغون ثواب الله ، يقول :

نرجو فواضلَ ربٍّ سَيْبُه حسنٌ وكل خيرٍ لديه فهو مقبـــول

ولكنا نُصْدَمُ فى آخر القصيدة بوصفه المسهب لمجلس شراب ، ومن ثَمَّ كنا نقطع بأن للقصيدة أصلا قديماً يتصل بحياة الجاهليين الوثنية وما كانوا يحلّون من خمر . وقد أضيفت إلى هذا الأصل قطع جديدة ، تتصل بالهجرة فى سبيل الله ورسوله ووصف معارك العرب مع الفرس .

وعلى هذا النحو نستطيع دائماً أن نجمع كثيراً من الأشعار التى نُظمت فى كل معركة ، سواء مع الفرس أومع الروم ، وإن ما تطفح به كتب الصحابة مثل الاستيعاب والإصابة وكتب التاريخ مثل الطبرى وكتب الأدب مثل الأغانى وكتب الجغرافية مثل معجم البلدان لياقوت ليؤلف للعرب فى الفتوح ملحمة ضخمة . ولم تكن كلها أشعاراً حماسية ، ففيها مراث رائعة لبعض من كانوا يفقدونهم ، من ذلك قصيدة كَثِير بن الغَرِيزة التميمى يرثى بها من أصيبوا فى معارك الطَّالَقان وجُوزَجَان لعهد عمر بن الخطاب ، وفيها يقول[2] :

مَنَى مُزْنُ السحابِ إذا استهلَّتْ مصارعَ فتيةٍ بالجُـوزَجانِ

وما بى أن أكون جَزِعْتُ إلا حنينَ القَلْب للبَرْق اليمانى

ورُبَّ أخٍ أصاب الموتُ قبلى بكيتُ ولو نُعِيتُ له بكانى

وعبَّروا فى أثناء ذلك عن حنين بالغ إلى ديارهم وأهليهم . وبجانب هذا الحنين والرثاء نجد بعض الشعراء يتحدثون عن بلائهم فى المغازى بعامة ، على نحو

---

(١) يقارعون : يضاربون . العجم : الفرس . العزل : جمع أعزل وهو من لا سلاح معه . الميل : جمع أميل وهو الذى لا يحسن ركوب الخيل.

(٢) أغانى (طبعة دار الكتب) ١١ / ٢٧٨ حيث سرد أبو الفرج القصيدة فى ترجمته وانظر فيه الإصابة ٥ / ٣١٨ والخزانة ٤ / ١١٨ ومعجم الشعراء ص ٢٤٠ .

شأس الأسدى[١]، وكان كثير الشعر فى الجاهلية والإسلام ، وله يذكر قتل رستم[٢] :

قتلنا رُسْتَماً وبنيه قَسْرًا تثير الخيلُ فوقهم الهَيالا[٣]

وفرَّ الهُرْمُزَان ولم يحامى وكان على كتيبته وبالا[٤]

وشهد القادسية أيضاً عروة بن زيد الخيل ، وله فيها شعر كثير على شاكلة قوله[٥] :

برزتُ لأهل القادسية مُعْلَماً وما كلُّ من يَغْشَى الكريهةَ يُعْلم

ومن الشعراء البارزين الذين شهدوها ربيعة بن مقروم الضبى[٦]، وقد ختم الجاحظ كتابه « الحيوان » بأبيات له يذكر فيها بلاءه حينئذ ، يقول فيها[٧] :

وشهدتُ معركةَ الفيول وحولها أبناء فارسَ بَيْضُها كالأَعْبَل[٨]

مُتَسَرْبِلى حلقَ الحديد كأنهم جُرْبٌ مقارفةٌ عَنِيَّةُ مُهْمِل[٩]

والأبيات من قصيدة رواها أبو الفرج فى أغانيه ، وهو فيها يتحدث بجانب صنيعه فى تلك الحرب عن اقتحامه لحوانيت الخمارين ويفخر بأنه يسقى صاحبه الصَّبوح ، ونحن نعرف أن الإسلام حرَّم الخمر ، ومن ثم كنا نقطع بأن القصيدة تتألف من جزءين قيل أولهما فى الجاهلية ، وقيل ثانيهما فى الإسلام ، وسنرى عند حسان بن ثابت قصيدة على هذه الشاكلة حين نترجم له فى الفصل التالى . ومن ذلك قصيدة لعَبْدة[١٠] بن الطبيب ، وهو من الشعراء المجيدين الذين أبلوا فى حروب القادسية والمدائن ، ونراه يستهلها بقوله[١١] :

---

(١) انظر ترجمته فى الأغانى (طبعة دار الكتب) ١١/١٩٦ والشعر والشعراء ١/٣٨٩ وابن سلام ص ١٦٤ والاستيعاب ص ٤٥٤ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٢٢ .

(٢) الطبرى ٣/٥٠ .

(٣) الهيال : ما ينهال من الغبار .

(٤) الهرمزان : الكبير من حكام الفرس .

(٥) الأغانى (طبع الساسى) ١٦/٥١ .

(٦) انظر ترجمته فى أغانى (ساسى ١٩/٩٠ والشعر والشعراء ١/٢٧٩ والإصابة ٢/٢٢٠ والخزانة ٣/٥٦٦ .

(٧) الحيوان (طبعة الحلبى) ٧/٢٦٣ .

(٨) البيض : الخوذ . الأعبل : حجر أبيض .

(٩) يشبه الفرس بإبل جرباء . مقارفة : من القراف وهو داء يقتل البعير . العنية : طلاء للجرب ، وأراد نفس الإبل الجربى . والمهمل : الذى يهمل الإبل فى المرعى .

(١٠) انظر فى ترجمته الأغانى (طبعة الساسى) ١٨/١٦٣ والشعر والشعراء ٢/٧٠٥ والإصابة ٥/١٠١ والموشح ص ٧٥ .

(١١) انظر القصيدة فى المفضليات (طبعة دار المعارف) ص ١٣٥ .

ومنهم بشر بن ربيعة الخَثْعمى، وله يصور بلاءه وبلاء قومه فى مواقع القادسية[١] :

تذكَّرْ ـ هداك الله ـ وَقْعَ سيوفنا ... بباب قُدَيْسٍ والمكرُّ عَسِيرُ[٢]
عشيَّةَ ودَّ القوم لو أن بعضهم ... يُعـار جَنـاحَىْ طائر فيطير
إذا ما فرغنا من قِراع كتيبةٍ ... دَلَفْنا لأُخرى كالجبال تسير[٣]
ترى القوم فيها واجمين كأنهم ... جمالٌ بأحمالٍ لهنَّ زفير[٤]

وممن له بلاء حسن فى القادسية قيس بن المكشوح المرادى ابن أخت عمرو بن معديكرب ، وهو الذى قتل رستم قائد الفرس فى تلك المعارك، وله يصور ذلك[٥] :

جلبتُ الخيلَ من صَنْعاءَ تَرْدِى ... بكل مـدجَّجٍ كالليث سامى[٦]
إلى وادى القُرَى فديار كلبٍ ... إلى اليَرْمـوك فالبلد الشآمى
وجِئْن القادسيَّة بعد شَهْرٍ ... مسوَّمـةً ، دوابرُهـا دوامى[٧]
فناهضنا هنالك جَمْع كسرى ... وأبنـاءَ المـرازبة الكرام[٨]
فلما أن رأيتُ الخيل جالتْ ... قصدتُ لموقف الملكِ الهمام
فأضربُ رأسه فهَوى صريعاً ... بسيفٍ لا أفلَّ ولا كهام[٩]
وقد أبْلَى الإلهُ هناك خيرًا ... وفعـلُ الخير عند الله نامى

وممن حضر القادسية الأسود بن قُطْبة، وله فيها أشعار كثيرة[١٠]، وعمرو بن

---

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٥/٢٤٣ .
(٢) قديس : يريد القادسية أو موضع بجانبها.
(٣) دلفنا : تقدمنا .
(٤) واجم : من الوجوم وهو السكوت مع كظم الغيظ .
(٥) فتوح البلدان للبلاذرى (طبع المطبعة المصرية بالأزهر) ص ٢٦١ .
(٦) تردى الخيل : ترجم الأرض بحوافرها .
(٧) مسومة : معلمة . الدوابر : العراقيب . دوامى : ملطخة بالدم .
(٨) المرازبة : رؤساء الفرس .
(٩) أفل : مثلم . كهام : كليل لا يقطع .
(١٠) الإصابة ١/١٠٨ .

٤

شعر الفتوح

خرج العرب من جزيرتهم بعد حروب الردة يجاهدون فى سبيل الله دولتى الفرس والروم . فقضوا على الأولى ، واستولوا على أهم ولايتين للثانية ، وهما الشام ومصر . وكانوا فى أثناء هذا الجهاد ينظمون أناشيد حماسية مدوِّية ، يتغنون فيها بانتصاراتهم ويتمدحون بشجاعتهم وما يؤدُّون لله ودينه . ومن الصعب أن نَعْرض كل ما نظموه فى مواقعهم المختلفة ، إنما نلم بطرف منه ، ولنقف قليلا عند موقعة واحدة فى الشرق هى موقعة القادسية ، وفيها يلمع اسم أبى مِحْجَن الثقفى[١] ، وكان مولعاً بالخمر فحبسه سعد بن أبى وقاص ، حتى إذا احتدمت المعركة توسّل إلى سلمى زوج سعد أن تطلقه — على أن يعود إلى قيده — ليُسْهم فى شرف المعركة ، فأطلقته وأبلى فيها بلاء حسناً ، وعاد إلى سجنه وهو ينشد[٢] :

لقد علمتْ ثَقِيفٌ غير فَخْرٍ ... بأنا نحن أكرمهم سيوفا

فإن أُحْبَسْ فقد عرفوا بلائى ... وإن أُطْلَقْ أجرَّعْهم حُتوفا

وكان حول أبى مِحْجن فرسان كثيرون قصفوا الفرس وأطاحوا برءوس أبطالهم ، وهم يتصايحون بالشعر الحماسى ، منهم عمرو بن معديكرب الزُّبَيْدى[٣] ، وكان من أبطال الجاهلية وفرسانها وأسلم ، وكانت له آثار مشهورة فى القادسية واليرموك ونهاوند ، ومن شعره[٤] :

والقادسيةُ حين زاحم رُسْتَمٌ ... كنا الحماةَ بهنَّ كالأشطان[٥]

الضاربين بكل أبيضَ مِخْذَمٍ ... والطاعنين مجامع الأَضْغَان[٦]

---

(١) انظر فى ترجمة أبى محجن الأغانى (طبع الساسى) ٢١/١٣٧ والشعر والشعراء ١/٣٨٧ والإصابة ٧/١٧٠ والخزانة ٣/٥٥٠ وما بعدها والاستيعاب ص ٦٨٢ .

(٢) أغانى ٢١/١٤٠ .

(٣) انظر فى ترجمته كتب الصحابة وأغانى (دار الكتب) ١٥/٢٠٨ والشعر والشعراء ١/٣٣٢ وذيل الأمالى ص ١٤٥ والخزانة ١/٤٢٢ ، ٣/٤٦٠ ومعجم الشعراء للمرزبانى (طبعة الحلبى) ص ١٥ ومعاهد التنصيص ٢/٢٤٠ والعينى ١/٣٧٩ .

(٤) ذيل الأمالى ص ١٤٦ .

(٥) الأشطان هنا : الجنّ والمردة .

(٦) الأبيض : السيف . المخذم : القاطع . مجامع الأضغان : القلوب .